الفصل السادس

اقتحمت لمى مكتبنا في الشيراتون متبوعة بعاصفة من رائحة عطر زهر العسل وهي تهز رأسها ذات اليمين وذات الشمال مواكبة الأغنية المدوية عبر سمّاعاتها الرأسية. لم تكن لمى تستمع إلا إلى فرق الشباب الذكور الأمريكية والصرعات الأخيرة من أغاني المناغاة الغزلية للمطربات، إلا إلى الأناشيد المغوية إياها إلى مكان آخر، إلى أي مكان عدا العراق. كان قميصها البولو الأزرق يلف صدرها عَصْراً، وكان شعرها الخرنوبي الأجعد ملموماً إلى الوراء بعيداً عن وجهها بما يبرز قرطيها المتدليين المتهاوين مثل دمعتين ذهبيتين. صرخت "مرحباً شبااااب!" بكلمات تفيض مرحاً وسعادة. رد عليها المترجمون "الشباب" بابتسامات مشرقة؛ ردوا على هذا اللعبة النارية التي كانت شخصيتها تذرو ومضات صغيرة زاهية الألوان في غرفة مجهزة بثلاثة أجهزة تلفزيونية مفتوحة على مشاهد الذبح.

كان راجيف قد وظف لُمى وأنا في إجازة جنازة جدتي. لغتها الإنجليزية كانت مخيفة، غير أن أبا سيف أحبها، وكان ذلك هو المهم في الأمر. كانت لمى المرأة التي ظل أبو سيف يبحث عن أمثالها باستمرار ـ كانت مستقلة وجميلة، كانت تذكر بالفتيات اللواتي كان يواعدهن أيام الدراسة الجامعية بأمريكا. كانت لمّاحة

obeikandl.com

وسريعة التجاوب. بات أبو سيف مقتنعاً بأن من شأن إخضاع لمى لوصايته بضعة أسابيع أن يحولها إلى صاحبة محل، جزء أساسي من المكتب. كذلك كان يعلم بأن المكتب كان بحاجة إلى لمى. حتى مع استثناء عمر الذي لم يكن متمتعاً بالفحولة العراقية النموذجية وإسقاطه من الحساب، كانت إفرازات غدة التستوستيرون الذكورية فائضة. كان عمر هذا أفضل أصدقاء أي فتاة، متذوق أزياء وعميقاً، مفكراً وحالماً. كنت أستطيع أن أحدث عمر بأي شيء، وقد فعلت، متقاسمة معه الأخبار الآتية من الأهل، حياتي هناك، عائلتي. كان قادراً على التحلي بالصراحة والعملية، ورغم مشاركته لمى في إعجابها بالجنود الأمريكيين ـ الذين كان يعدهم "إخوة" له ـ كان يمقت أنهار الدموع التي كانت تذرفها انفعالاً بأغنيات الغرام. لم يكن عمر يبكي. كان فقط يسمح بين الحين والآخر بأن تغرورق عيناه بذلك السائل الغريب. لم يكن عمر يؤمن بالدموع؛ إلا أنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بأن على المرأة أن تتبرج طلباً للنجاح وإن كانت في بغداد تحت القصف. ذات يوم، شديد الحر إلى درجة جعلتني أتساهل مع ظهور جزء مما فوق الركبة، ارتديت "شورتاً" خاكياً قصيراً. ما إن دخلت المكتب، حتى طق عمر لسانه منبهاً إياي. ثم قال: "تعلمين أن أوبرا تقول إن على النساء القصيرات عدم ارتداء مثل هذه – الشورتات–، إنها لا تفيد إلا في جعلك تبدين أقصر".

في حالة من السخط، خرجت من الغرفة حانقة.

لم تكن لمى تنسخ أزياءها عن أوبرا بل كانت تقلد الممثلات في الأفلام الأمريكية والمطربات في أشرطة الفيديو الموسيقية اللبنانية حيث كانت النساء العاريات ذوات الأهداب الاصطناعية والكحل الأسود الكثيف يرقصن على إيقاع الموسيقا الشعبية العربية. عند الخروج كنت ألبس مثل أي عراقية لأخفي حقيقة كوني غربية، في حين كانت لمى تلبس مثل أي غربية لتخفي حقيقة كونها عراقية. مرةً عبرت لها عن إعجابي بقميصها، ذلك القميص الأسود "الأنيق بهدوء" المزين بخرزات براقة. في اليوم التالي جلبت لي معها قميصاً مماثلاً أبيض اللون.

كان مكتب **الواشنطن بوست** أمريكا لمى الصغيرة. كانت تستطيع أن تلبس وأن تتصرف كما تشاء. في القواعد العسكرية الأمريكية أيضاً كانت تشعر كما لو كانت فوق أرض أمريكية. كانت لمى، التي كانت في السادسة والعشرين من العمر لدى قيام الولايات المتحدة بغزو العراق، تدير مقهى للجنود في إحدى قواعد الجيش وسط بغداد، مقدمة المشروبات الغازية، السندويشات الخفيفة، مع طبق إضافي من إغراء لمى. أرادت أن تتميز عن الأخريات اللواتي كان الجنود يلتقونهن، اللواتي كن يغطين رؤوسهن، اللواتي بَدَوْن عراقيات. أرادت لمى أن يراها الجنود بوصفها أمريكية.

ذات عصر أصغت إلى كلامي بأدب وأنا أبين لها أن عليها، إذا كانت راغبة في مرافقتي إلى إحدى القواعد العسكرية في اليوم التالي، أن تكون أكثر محافظة من حيث الملبس. لن أطلب منها أن تغطي رأسها. غير أنني كنت أرجو أن تكف عن ارتداء ذلك القميص المزين بالخرز الضيق جداً. أما عن الغزل، فقد يكون بوسعها أيضاً أن تخفف منه. لا بأس من أن تسعى للعثور على زوج أمريكي حين تكون وحدها، ولكن ليس وهي معي.

سَأَلَتْ: "لماذا؟ نحن أحرار."

"حسناً. من الأفضل أن يرانا الجنود مراسلتين أولاً، وامرأتين بعد ذلك. إنه أكثر انسجاماً مع متطلبات المهنة."

"ولكن لماذا؟ أنتم أيضاً أحرار."

أجبت "صحيح، أحرار، بمعنى ما"جاهدة للاهتداء إلى كلمات تفصح عما قصدته، مبينة أن العنصر النسوي في داخلي كان ممتعضاً حتى من اضطراري إلى خوض مثل هذا الحوار معها. أحزنني أن أرى فتيات صغيرات بأثواب طويلة ذات أكمام طويلة، رؤوسهن ملفوفة بالأغطية، جالسات على حافة المسبح فيما يكون أخوتهم الذكور مستمتعين بالغطس في الماء البارد. لم يسبق لي أن شعرت

بمثل هذا القدر من أنوثتي، غير أنني أحسست في الوقت نفسه بقدر كبير جداً من الحاجة إلى إخفاء جسدي، إلى إلغاء جنسي، لأكون عضواً في فريق الصبية.

أخيراً قلت، بعد الاستقرار على تفسير معين: "تعلمين أن الأمر صعب، لأن الجنود ليسوا معتادين أن يجدوا نساء قريبات منهم دائماً. من الأفضل ألا نلفت النظر بوصفنا نساء."

رمقتني بنظرات فارغة عاجزة عن فهم سياسة الملابس لدى المراسلة الحربية أو عند إحدى الغربيات في أرض عربية. كانت لمى قد تحررت من غطاء الرأس والعباءة. رفضت أن تخضع لقيود الأقمشة.

قلت لها: "البسي شيئاً طبيعياً، وإلا فلن أستطيع اصطحابك." لم أكن واثقة مما كانت تعنيه كلمة "طبيعياً".

لم أجد صعوبة في التآلف مع لمى بوصفها من مسؤولياتي، أختاً أصغر، صديقة، زميلة غرفة في الكلية، شريكة غناء ورقص في أثناء ترتيب الصحون. غير أنني افتقدت هدى حين تركت العمل في مكتبنا. هدى وأنا درجنا على الانحباس في الحمام المجاور للمطبخ، على إطلاق الموسيقا، وعلى مواصلة الرقص مع طناجر القلي مع الاستمرار في غناء أغنية **عد الغربان**. وأحياناً كان الحرس يحاولون التسلل للتلصص علينا وكانت هدى تنهرهم صارخة: "لا، ممنوع! هذا يخصنا وحدنا. اذهبوا! انقلعوا!" كانوا ينصرفون بسرعة تاركيننا وحدنا مع شركاء رقصنا من طناجر وأطباق. مع أن هدى لم تكن مختلفة روحاً عن لمى، فإنها كانت أكثر محافظة، أكثر تديناً. صحيح أنها لم تكن تسمح لأحد بأن يتدخل في أمورها، غير أنها كانت متشددة في موضوع تغطية رأسها كي لا تغري الرجال بالنظر إليها.

بات العثور على مترجمات أكثر صعوبة مع مرور الزمن بسبب خطورة الخروج إلى الشوارع وساعات العمل الطويلة. كانت لمى مناسبة جداً: أُمٌّ مطلقة

ابنتها الوحيدة ترعاها أكثر الأحيان جدتها لتمكن لمى من العمل. لم تكن لمى خاضعة لمحاسبة أحد، خلافاً لحال بعض المرشحات الأخريات اللواتي قابلناهن وكن يأتين مع مرافقين أو ذيول: إخوة أو أزواج يريدونهن أن يعملن في المكتب فقط دون الخروج لإعداد التقارير، أو أولاد يتطلبون وجودهن في البيت مع حلول ساعة محددة لإعداد الطعام.

بعد الغزو الأمريكي، بادرت لمى، التي يعمل أخوها الأكبر طبيباً، إلى إطلاق مؤسسة تساهم في إعادة تأهيل نظام الرعاية الصحية في العراق. أدارت المنظمة من بيت بالأجرة في المنطقة الحرة. ومع أنها لم تكن ذات خبرة فإن خريجة إحدى الجامعات الخاصة ببغداد مع شهادة لغة إنجليزية، لمى، كانت مصممة على أن تحتل مكاناً تحت الشمس، أن تجعل من نفسها إنساناً ذا وظيفة. من المؤكد أنها لم تكن بحاجة إلى المال. فعائلتها كانت ميسورة بالمعايير البغدادية، على الرغم من أنني لم أسأل قط كيف تراكمت هذه الثروة. صحيح أن لمى وأهلها عانوا كثيراً في ظل صدام إلا أنهم لم يكونوا وحدهم، والد لمى، فاروق، كان مهندساً مدنياً في الحكومة. في الثمانينيات تجادل فاروق مع أحد مسؤولي الحكومة بشأن تصميم أحد المباني. بموافقة صدام، أمر المسؤول فاروق بالالتحاق بالجيش والذهاب إلى الجبهة لمقاتلة إيران. كانت لمى في الخامسة من عمرها. ذهب أبوها إلى الحرب ولم تره ثانية قط. يفترض أنه قضى، غير أن الشرع الإسلامي لا يسمح بإعلان موت أي شخص رسمياً دون وجود جثة. ودون الجثة لا تستطيع زوجُه الحصول على أي تقاعد، لا تستطيع تسوية أمر التركة، ولا تستطيع أن تتزوج ثانية. كانت لمى وأهلها يكرهون صدّاماً، يحقدون على ما كان قد فعله بمعيلهم. كانوا يعشقون أمريكا، ولاسيما الحريات التي توفرها للنساء. كانت لمى من أنصار الحركة النسوية وإن لم تكن تعرف الكلمة الإنجليزية الدالة عليها؛ ولو كانت تعرفها لأقبلت على تبنيها بشغف، ناقشة إياها بالخرز على قمصانها الضيقة.

في إحدى مهماتها الصحفية الأولى، قام راجيف بإيفاد لمى إلى أحد الجوامع لتغطية صلاة الجمعة. مواعظ عدد من القيادات الدينية المتنفذة التي كانت كلماتها منطوية على طاقة حفز الناس على الخير أو الشر هذه كنا نغطيها على نحوٍ منتظم. غالباً ما كنا نستطيع جس نبض الشارع السياسي عبر كلمات الأئمة، القيادات الطائفية القوية. ما من أحد من مترجمينا كان من المترددين على صلاة الجمعة بانتظام. وإذا ذهبوا فتنفيذاً لمهمة. كان إيمانهم روحياً بمقدار ما كان ثقافياً. وبوصفها امرأة، كانت لمى تشعر بقدر استثنائي من الاضطهاد من جانب الإسلاميين المحافظين. أمها التي كانت ترتدي سراويل الجينز الأزرق، القمصان ذوات الأزرار من الأعلى إلى الأسفل، دون أي غطاء للرأس بالتأكيد، لم تكن هي الأخرى ذات علاقة بالطقوس الدينية؛ لذا فقد خطرت على بال لمى فكرة امتلاك غطاء للرأس وعباءة. اضطرت لمى لاستعارة غطائي وعباءتي أنا لتحضر الصلاة وأبقتها في المكتب كي لا تراهما أمها.

عادت لمى من تغطيتها الأولى (والأخيرة) لصلاة الجمعة وبيدها غطائي وعباءتي ملفوفين مثل كرة. ضربت الأرض بالكتلة القماشية السوداء المكورة، صارخة بغضب: "ليتني حرقتها. لا أستطيع أن أطيق هذا. إنهم يعاملون النساء كالبهائم."

مددت يدي ورحت أربت على كتفها وأقول: "صعب أن تكوني سابقة لعصرك، أليس كذلك؟" محاولة مواساتها.

كل صباح كنت أنسخ قائمة مفردات لمساعدة لمى على تحسين معرفتها باللغة الإنجليزية. كانت لمى تبحث عن الكلمات التي لا تعرفها في القاموس وتعيد نسخها في دفتر. قدمت لمى إلى عالم جديد كلياً من الكلمات التي كانت ستحتاج إليها لتكون مترجمة في عراق ما بعد الحرب. **الحاجز. التفجير. الانتحار. الديمقراطية. الأسلاك الشائكة. إعادة الإعمار. حركة التمرد.** علمها أبو

سيف كيف تكتب التقارير واصطحبها لتمكينها من مراقبته وهو يعمل. كرر على مسامعها ما كان قد تعلمه من راجيف: "سجلي ما يقوله الشخص لك حرفياً! لا تقحمي رأيك في الأسئلة! ضعي مشاعرك جانباً! كوني محايدة مئة بالمئة!" وقد كرر ما كان قد تعلمه مني، مؤكداً نصيحة ديفيد هوفمان كما لو كانت أم الوصايا الصحفية: "إياك أن تغلقي دفترك!"

بمناسبة عيد ميلادها الثامن والعشرين قررت لمى أن تكرم نفسها بحفل موسيقي صاخب في الشيراتون. طلبت مني بإلحاح دعوة الجنود الأمريكيين الذين يحرسون الفندق. أبلغتها أن من الأفضل أن تدعوهم بنفسها. باستمرار كنا، لمى وأنا، نتشاجر حول علاقاتها بالجنود. كان قد سبق لها أن خُدعت من قبل رقيب التقته في المنطقة الخضراء خريف 2003. نشأت بين الاثنين علاقة رومانسية، وعرض الرقيب عليها الزواج. أم لمى وابنتها حضرتا حفلة الخطوبة. كانت لمى تراهن على جعل الرقيب بطاقة سفر إلى عالم جديد في الولايات المتحدة. غير أنه ما لبث أن تبين أن الرجل كان متزوجاً. وما إن اكتشفت لمى أنه كذب عليها حتى فسخت الخطبة. غير أنها ظلت ترسل له خطابات إلكترونية إلى فلوريدا حيث كان قد عاد إلى زوجه وأولاده بعد انتهاء فترة خدمته. كانت لمى لا تزال تحبه بالرغم من كل أكاذيبه. حتى شهر تموز/يوليو كان لا يزال يعد لمى في رسائله الإلكترونية بأنه كان سيترك عائلته، سيعود إلى العراق، سيستعيدها، وسيأخذها إلى الولايات المتحدة. كانت لمى مفرطة التوق إلى الخروج من العراق، وقد أعجبتها معاملة الجنود الأمريكيين لها على قدم المساواة ـ كانوا يغازلونها، يغرقونها في بحر من الأحلام الوردية عن المستقبل. صحيح أن لمى كانت شرسة غير أنها ساذجة، مسكونة بفكرة مثالية عن حياة جديدة في أمريكا مع زوج أمريكي جديد مثالي، كامل الأوصاف. سألتها: "ما الذي ستفعلينه بعد وصولك إلى هناك؟ سيتعين عليك أن تبدئي من الصفر. يجب أن تدركي أنك لن تستطيعي أن تصطحبي سيارتك البي. إم. في. معك. هل أنت مستعدة للاستغناء

عنها؟ هل أنت مستعدة لأن تكوني مهاجرة؟" لم يسبق للمى أن حلمت إلا بالحرية في ظل حكم صدام. أردت إعدادها، حمايتها. أما هي فكانت تريد أن تقفز دون أن تنظر إلى الهوة السحيقة.

"هناك، انظري، أقول لك هناك. انظري إليه. ادعيه! أرجوكِ، أرجوكِ، أرجووووكِ!"

"لا يا لمى! لن أُقْدم إلى الإمساك بعابر سبيل من الجنود ودَعْوَتِه إلى حفلة عيد ميلادك."

"أرجووووكِ!"

فاض سخطي فأذعنت أخيراً: "ادعيه أنت بنفسك!"

استمر هذا أياماً وصولاً إلى الحدث الجلل، الحدث الذي تم يوم ميلادها الواقع في 21 آب/أغسطس 2004. قمت ببث دعوة إلكترونية موجهة إلى أصدقائنا الإعلاميين الغربيين والعراقيين، مستخدمة الدعوة ذات القاعدة الإنترنتية التي درجت على استخدامها في أمريكا لدعوة الأصدقاء إلى حفلات المشاوي والرحلات البحرية في واشنطن. فيما يخص حفلة لمى طلبتُ من ضيوفنا أن يصطحبوا أحذية الرقص و"مايوهات" السباحة، مع رجاء ترك الأصدقاء من منتسبي جيش المهدي في بيوتهم، في إشارة إلى ميليشيات رجل الدين الشيعي مقتدى الصدر الدائبة على منازلة القوات الأمريكية معظم فصل الصيف.

اشترت لمى قالب "كاتو" من أفضل المحلات في المدينة. كان القالب بحجم قطعة "بيزا" كبيرة، مغطاة بالبوظة والشوكولاته المجمدتين مع عبارة "عيد ميلاد سعيد يا لمى" باللغتين الإنجليزية والعربية. تولى راجيف أمر المقبلات والمشروبات الروحية، في حين قام طباخنا المناوب، حيدر، بشي الكباب. نشر اللحم فوق

الجمر المتقد بحفزٍ من مروحة كهربائية موصولة بغرفتي الطابقية البعيدة مسافة طبقتين. الومضات المتطايرة من الجمر راحت تزين أجواء الليل.

كان لابد لحفلة لمى من أن تشتمل على الرقص فاستأجرت المغنية فريق ديسكو معروفاً باسم "فريق الجوكيات الأربعة". طلب الشباب منا مئة دولار إضافياً لكوننا أجانب واحتمال تعرض حفلنا للهجوم، بما يفقدهم معداتهم وآلاتهم. قام الفريق بتشغيل أشرطة مسجلة لأغاني ويتني هيوستون الليل كله، مزركشة بين الحين والآخر بأغاني مطربين مصريين وعراقيين تفيض غراماً. رقص الحراس والمترجمون حول المسبح، متمايلين مع الموسيقا، مراقصين هدية لمى لهم يوم ميلادها، منسجمين مع حفلة، حفلة فعلية حيث استمتع الناس ونسوا الحياة فيما وراء الحواجز ولو للحظات. وبسبب مخاطر التنقل ليلاً، كانت بغداد هادئة بعد الغروب. جميع المطاعم والمراقص التي كانت تمتلئ ليلاً قبل الحرب باتت الآن خاوية. دأب العاملون عندنا على الشكوى من بقائهم محرومين من اللهو. الأسر كانت ملتزمة بيوتها خوفاً مما كان يتربص بها في الخارج. راقبت رقص فريق العاملين مع بعيد. ثمة شيء بدا غريباً وغير مألوف. الرجال فقط كانوا يرقصون. أين كانت لمى؟ ألفيتها منهمكة في الرقص في زاوية معتمة مع مراهقتين عراقيتين. مشيت نحوهن وأنا ألومهن: "لا، لا، هذا لا يجوز!" أمسكت بذراع لمى وجررتها باتجاه حلبة الرقص، حلبة الرقص الحقيقية.

"تريدين أن تكوني أمريكية؟ ترغبين في التصرف مثل امرأة أمريكية؟ إذن عليك ألا تتخفي كما تفعلين".

"غير أن الجميع ينظرون إلي وأنا أرقص!" بدت خائفة. الرجال والنساء لا يرقصون معاً في الأماكن العامة بالعراق. مع مرور الزمن أدركت أن لمى، مهما رغبت في ألا تكون عراقية، لم تستطع أن تنكر أن هذا كان بلدها، أن هذا هو المكان الذي اكتشفت فيه موقعها في العالم. كانت تجاهد للخروج من شرنقة

الثقافة الوحيدة التي سبق لها أن عرفتها بالمطلق. كانت جالسة على حافة المسبح غاطسة قدميها في الماء، مع مواصلة شباب الفرقة الموسيقية للعزف. لم أفهمها ليلة الحفلة؛ لم أفهم تصرفها؛ أعلمتها بذلك.

قلت: "لا أفهم. تريدين أن ترتدي قميصاً ضيقاً مشدوداً على الجسم. ترتدين سروال جينز لتبرزي مؤخرتك ولا تريدين أن تجذبي أنظار الناس إليك. أهذا معقول؟ غداً سأعلمك كلمة إنجليزية جديدة. إنها كلمة تناقض. هيا تعالي! ثمة أمان في الكثرة. سأراقصك."

انضممنا إلى الحلقة، راح الجميع يحدقون في جسدها المتمايل الجميل، تماماً كما كانت لمى متوقعة. أغمضت عينيها وذابت في سحر الموسيقا.

بعد بضعة أسابيع أخذت لمى معي إلى الأردن، في تلك الرحلة الجوهرية التي شهدت بلوغها سن الرشد واكتمال نضجها. كان ذلك "خروجي" الأول من العراق في شهرين كاملين. بداية ترددت في اصطحاب لمى. حين أتيت على ذكر الأمر أمامها للمرة الأولى، توقعت أنها لم تكن لتحصل على، أو تحتاج ولو دقيقة نوم واحدة في أثناء الرحلة. بدت عازمة على استغلال كل لحظة من لحظات السفرة. أما أنا فكنت بأمس الحاجة إلى النوم. كانت وتيرة التيار الطويل لعملنا اليومي قد أرهقني. أردت أن أقرأ وأنام وأغرق في عوالم الأفلام الخيالية هرباً من الواقع. هذه كانت إجازتي أنا. لم أكن حريصة على حضور الحفلات كل ليلة والاستمرار في الرقص إلى ساعة متأخرة من الليل. تحدثت مع جني عن الأمر عبر الهاتف. ذكرتني بأنني أكره أسفار المهمات لأنني أمقت ارتياد المطاعم وحدي. يضاف إلى ذلك أن لمى يمكنها أن تكون مترجمتي، تساعدني في إبحاري عبر أرجاء الأردن البعيدة عن المراكز السياحية والمتاحة أكثر، بالتالي، بالنسبة إلى من يتحدث الإنجليزية.

obeikandl.com

كنا، لمى وأنا، كلانا، في رحلة شرق أوسطية عبر الأردن للمرة الأولى. كانت الرحلة من ذلك النوع من الأسفار التي كنت قد قمت بها مرات عديدة في الولايات المتحدة بداية الشباب. صديق أو صديقة في مقعد الراكب. كأس كبيرة من السبعة على أحد عشر متدلية من مقبض تغيير السرعة. كيس من القضامة وصندوق بيرة على المقعد الخلفي. كنت في التاسعة عشرة حين ذقت طعم الحرية للمرة الأولى، منطلقة إلى الكلية دون مرافقة أحد الأبوين على طريق إيلينوي الجنوبية في سيارتي الهوندا المتداعية ذات السقف المتحرك.

أما لمى فقد تعين عليها أن تنتظر بلوغ الثامنة والعشرين من العمر كي تهتدي إلى حريتها في سيارة نيسان مستأجرة على طريق وادي عربة الموصلة إلى البحر الميت. حتى هذه الرحلة لم يكن قد سبق لها أن كانت في إجازة دون مرافقة أمها أو أحد أقربائها الذكور. لم يكن قد سبق لها قط أن لبست "مايو" سباحة على شاطئ فيه رجال ونساء. ورغم تهورها المفرط لم تكن لمى قد عرفت أيَّ "ديسكو" يقدم الكحول، أيَّ تبادل خاطف لأرقام الهواتف مع شركاء رقص، أيَّ استغراق في بحر الألحان في السيارة مبددة الهواء المكيف البارد مبقية السقف مفتوحاً، لمجرد... لم يكن قد سبق لها أن تناولت بيرة البار الفندقي الصغير.

في الليلة الأولى من إقامتنا في العاصمة الأردنية عمان، فتحت لمى براد غرفتنا الكائنة على الطبقة العاشرة من فندق الفصول الأربعة واكتشفت رفاً عامراً بالبيرة. أعلنت:

"علينا أن نشرب واحدة."

اعترضت: "لا، إياك أن تفعلي! المينيبارات عالية الأسعار حقاً، وقسم المحاسبة سيرى الأمر، وقد حسبناها للتو." نظرت إلى وجهها المتلهف، إلى الوجه الذي كان يقول: "غير أننا في إجازة دون أمهاتنا!" قبل المغادرة شجعها أبو سيف على نبذ التحفظ والإكثار من اللهو. أضافت بخبث "ليس ثمة أي حدود!"

بالنسبة إلى لمى بدت هذه الرحلة تجسيداً للحرية القصوى. كانت عاكفة على قراءة مجموعة قصص قصيرة للكاتبة فكتوريا لانسلوت بعنوان **هنا في هذا العالم**، قدمتُها لها هدية بمناسبة عيد ميلادها وهي عن نساء غربيات متحررات من سائر القيود والمحرمات والممنوعات والتقاليد، وقد أرادت لمى أن تكون مثلهن تماماً. كانت لمى تحلم بحياة مختلفة غير أنها لم تستطع أن تراها أمامها. قالت لي في المطار إن لديها أمنية واحدة، بل اثنتين: "أصلي للرب من أجل ابنتي، أمي، وأخي. ثم أصلي وأتوسل إلى الرب راجية أن يجعلني أمريكية."

رأيت هذا كله في ابتسامتها وهي ترفع علبة آمستل لايت من ذوات الست دولارات. انقضت كل منا على واحدة باردة، أطفأنا الأنوار، وجلسنا على الأرض ورحنا نراقب بزوغ القمر فوق المدينة المتلألئة. قررت بعد ذلك أن من شأن هذه الرحلة أن تكون هديتي لها. أردت أن أطلعها على كل شيء في تلك اللحظة، جميع الرحلات التي سبق لي أن قمت بها، سائر الأمكنة التي سبق لي أن رأيتها، كل الليالي التي سبق لي أن وقفت فيها بأرض أجنبية وأضعت نفسي في أفق جديد. ظلت لمى تحدق عبر النافذة، غارقة في أحلامها.

كنا قد سافرنا إلى الأردن جواً. قبل مغادرتنا بأسبوع واحد، تعرضت إحدى الطائرات لصاروخ أرض ـ جو، فبادرت الملكية الأردنية إلى تعليق رحلاتها بصورة مؤقتة. كنا في الرحلة الجوية الثانية بعد رفع الحظر. راكب مار بالشاشة الأمنية ضرب طاولة فيبرغلاس بإحدى حقائبه. خفضت رأسي مباشرة، كما فعل نحو خمسة من المتعاقدين مكتنزي الأبدان. أما لمى فلم تغير قيد أنملة من نبرة صوتها بل تابعت قصتها بعد أن علقت "لا تبالوا! لم تكن قذيفة مورتار" مطمئنة إياي قبل استئناف القصة. إذا كنت عاكفة على منح لمى رحلة العمر، فإنها كانت تذكرني بوجوب استبعاد العراق ما يكفي من الوقت للاستمتاع بهذه الرحلة.

كانت هذه رحلة لمى الجوية الأولى، المرة الأولى التي تتعرض فيها لمهانات التفتيش في المطارات في زمن الحرب على الإرهاب. قبل أسبوع واحد كانت قد استخدمت حبوب تخفيف وزن لرشوة المرأة المسؤولة عن نقطة تفتيش فندق الشيراتون من أجل منعها من "لمسها بطريقة غير ملائمة." (طلبت منها أيضاً "توقفي أيضاً عن لمس الصغيرة، صديقتي، تلك التي تدعى جاكي.") إن المرأة، وهي عراقية مكلفة بتفتيش جميع النساء اللواتي يدخلن إلى الفندق، درجت على دس يديها فيما تحت صداراتنا، واعتصار مؤخراتنا عاجنة إياها كما لو كانت تعد عجيناً للفرن. بمقدار ما استطعت أن أفهم، فإن ما كانت المرأة تقوم به تمثل ببساطة بنوع من التفتيش الدقيق عن أي متفجرات، ولكن الوقوف هناك والتعرض للملامسة و"الحَسْوَسَة" فيما الجنود الأمريكيون يراقبون ناشرين ابتسامات ذوات معنى على وجوههم بدا أمراً مهيناً.

في مطار بغداد انطلقت لمى باتجاه نفق تحري. وحين طلب منها أحد عناصر الأمن أن تخلع حذاءها لم تبد لمى أي استجابة. قالت له رافعة سبابتها في وجهه: "أنا أعرفكم! أولاً تطلبون خلع الحذاء، ثم تصلون إلى السروال الداخلي (الكيلوت) لن أفعل". جعلوها تمر. ولدى المرور بالهجرة والجوازات سلمت حارساً أمنياً عراقياً جوازي سفرنا، كليهما. نظر إلينا بفضول. "أيكما هي العراقية؟" عظيم. كنت مغطاة الرأس، في سروال أسود عتيق، وقميص ذي أزرار من الأعلى إلى الأسفل عتيق أيضاً، مع صندل عملي أكل الدهر عليه وشرب. أما لمى فكانت حديثة قصة الشعر مثل نجوم الغناء الشعبي، في سروال جينز أزرق ضيق ونطاق أسود مزركش. كنت قد أقلعت عن الاهتمام بمظهري. كنت حانقة ووسخة الوقت كله. لم يكن عندي أي وقت للأزياء، أي رغبة في التأنق. كان ماء الفندق قد جفف شعري الذي كان طويلاً ومتليفاً. عيناني كانتا حمراوين على الدوام بتأثير الحر الجاف، ولم أعد قادرة على استخدام عدساتي اللاصقة

للمسافات الطويلة. كنت في حالة بائسة، وكنت على علم بالحقيقة، ولكن هل كان يتعين على ذلك الحارس أن يذكرني، أن يدس الأمر في عيني؟

جلستْ لمى بجانب النافذة استعداداً للتحليق العمودي والتوغل في السماء. يداها كانتا ترتجفان، ولم تكن قادرة على الجلوس بهدوء. رفضت النظر من النافذة وشبكت يديها طوال الرحلة الجوية التي دامت ساعة ونصف الساعة. سألتها ونحن ننزل على السلم إلى مدرج المطار الأردني: "ألم يكن الأمر ممتعاً؟" نظرت إلي لمى محدقة وتشبثت بمعدتها. فهمت الأمر. في طيراني العمودي الأول إلى العراق، راودني الشعور نفسه.

في فندق الفصول الأربعة العَمّاني الذي هو فندق فخم مبني بالحجر الأسود كومنا حقائبنا في الغرفة وذهبنا لتناول الغداء في مطعم البهو. فتحتْ لمى قائمة المأكولات والمشروبات. سألت: "هل يوجد نبيذ عندهم؟"

"ماذا تقولين يا لمى، مازالت الساعة حتى دون الثانية بعد الظهر؟!"

رمقتْني بالنظرة الفارغة نفسها التي سبق لها أن رمقتني بها حين حددتُ لها مواصفات الملابس التي ينبغي أن ترتديها عند زيارة إحدى القواعد العسكرية في بغداد.

ما إن جاءت النادلة حتى طلبت لمى كأساً من الخمر المعتق وأخذت أنا كأساً من الأبيض المعتق وبعد أشهر (بالنسبة إلي) وسنوات (بالنسبة إليها) من الطعام العراقي نفسه، من الأرز نفسه، البندورة ذاتها، المخلل ذاته، وسلطة الفليفلة الخضراء إياها، لم نكن قادرتين على مقاومة الغرق في شيء آخر ـ شوربة عدس، سمك مدخن، جبن حلوم لي وجبن مشوي مع مقالي للمى. بعد رشفة من النبيذ، رفعت لمى الكأس وحملتها أمام عينيها وقربت وجهها من وجهي لتمكيني من دراسة ملامحها على نحوٍ أفضل قائلة: "هل أنا سكرانة؟ لا أشعر أنني سكرانة!" طلبت كأساً ثانية، كرعتها، وراحت تسأل ثانية: "هل أنا سكرانة؟" بصبر شرحت

الفرق بين المنتشي، المزهو، والسكران، منجزة أول دروس الإجازة. ثم قلت: "أنت لا تريدين أن تكوني سكرانة؛ من الأفضل أن تبقي عند مرحلة المزهوة. لا أريد أن اضطر إلى حملك إلى الغرفة." عموماً، العراقيات لا يشربن في العلن. حين كنا، هدى وأنا، نهرع إلى محل بيع المشروبات لشراء النبيذ من أجل الاحتفال في المكتب، كانت هدى تدخل المحل معي، غير أنها لم تكن تلمس القناني. أما لمى فلم يكن لديها أي هواجس دينية بشأن الخمر، وبدت مقتنعة، لسببٍ أحزنني من ناحية وأسعدني من ناحيةٍ أخرى، بأن تعاطي الكحول يجعلها أكثر اتصافاً بالصفة الأمريكية. لم تتناول كأسها الأول من النبيذ إلا قبل بضعة أشهر من الرحلة إلى الأردن. كان ذلك قد أشعرها بأنها حرة، بأنها قادرة على أن تتصرف كما تشاء. كانت طالبة جامعية في عطلتها الربيعية الأولى.

بعد الغداء اندفعنا إلى ركن مكة التجاري "مول مكة"، الذي هو مركز تسوق داخلي متعدد الطبقات في قلب عمان، باستثناء الملابس المزركشة وأغطية الرأس الكثيرة المعروضة للبيع لم يكن المركز "مول مكة" مختلفاً عن أي ركن تسوق في أمريكا. كنت أبحث عن سروال جينز، حذاء أسود، وربما قميص جديد. من فرط تشبهها بالنساء الغربيات أحست لمى بالإحباط حين اكتشفت أن النساء الأردنيات الملتزمات لمقتضيات نموذج المرأة الريشة المثالي كن ميالات لأن يكن أصغر بكثير من نظيراتهن العراقيات. بائعة أحد المخازن سألت لمى ما إذا كانت تريد أن تجرب سروالاً قياس 27 ، 28 ، 29، 30، 34؟ تابعت السيدة شطب الأرقام وظلت لمى تشير أن "لا" بيدها بعد كل رقم. أخيراً قالت البائعة "وماذا عن قياس 44؟" كانت لمى شديدة الهدوء عند مغادرتنا للمخزن. صرخت: "إنني بدينة! علي أن أخفف وزني. لا أحس بأني بدينة في العراق. لم يسبق لمثل هذا الإحساس أن راودني قط. غير أن الحقيقة هي أنني بدينة!" لم تكن لمى بدينة. كان جسمها جسم امرأة شابة أنجبت مولوداً، تأكل ما تشتهيه نَفْسُها، ولا تعاني من وساوس

الحمية والرياضة. خلال الجزء الباقي من الرحلة ظلت تتحدث عن أشكال الحمية وألوان الرياضة وتطلب مني أن أزودها بخطة مناسبة للوجبات.

في تلك الليلة وضعنا خططاً للذهاب من أجل تناول "السوشي" مع مترجم في **البوست** كان بيته قد تعرض للقصف في بغداد. كان الآن مقيماً في الأردن مع عائلته يعمل لدى سكوت ولسن، مراسل **البوست** الخارجي في عمان. لم يكن قد سبق لي أن التقيت نصيراً ولكنني كنت قد سمعت أنه ذو شخصية استثنائية. كان موظفاً صَدّامياً سابقاً تولى مراقبة راجيف وأنتوني شديد قبل تحررهما من الحاجة إلى مرافقة من وزارة الإعلام العراقية المتحكمة بإمكانية وصول وسائل الإعلام الأجنبية إلى العراق في ظل حكم صدام.

قررت لمى أن علينا أن نتأنق ملبساً للسهرة: سراويل ضيقة، قمصان ململمة. لبست سروالي الجينز الجديد الذي اشتريته من المكة مول. كان الجينز مناسباً؛ كنت أستطيع ارتداءه في المكتب دون أن أبدو متبرجة. دائرة حول نفسي بعد خروجي من غرفة الملابس كنت قد سألت لمى: "ما رأيك؟" جاء ردها على نحو: "حسناً، هل تعتقدين أنه ضيق بما يكفي؟" والآن ونحن عائدتان إلى الفصول الأربعة وعاكفتان على التهيؤ للسهرة، بدت غير مقتنعة بالقميص الذي وقع عليه اختياري، قميص "تي شيرت" بلا أكمام برتقالي اللون. صاحت: "اسمعي جاكي. لسنا ذاهبتين إلى المكتب!" سحبتْ قميصاً من حقيبتها وقدمته لي. وبعد ارتدائي للقميص دلتني إلى طريقة تركيزه بسحب طرفي خيطين لإبراز القدر المطلوب من الصدر. "تمام! الآن تبدين مثل الأمريكيات."

على هذا النحو انطلقنا لتناول العشاء مع نصير في أحد مطاعم السوشي في فندق هواردجونسون بعمان. بعد العشاء مشينا إلى منعطف الشارع حيث الناي، أحد أكثر ملاهي عمان إثارةً ورواجاً، إلى ذلك الملهى المزدحم بأردنيين عصريين مع أصدقائهم الأجانب. لم نكن حاجزين، الراقصون أشاروا بأيديهم:

obeikandl.com

"انقلعوا!". مد نصير رأسه. سمعته يقول: "**واشنطن بوست**". سارع الراقصون إلى فتح الطريق لنا إلى بقعة شرب مخملية فاخرة قُلبت إلى حلبة رقص بعد أن طارت عقول الحسناوات الأردنيات تحت تأثير الكحول. قررتْ لمى أن تشرب كوكتيلاً فطلبت لها كأساً أممية "كوزموبوليتية". كرعتْها بشراهة. "هل أنا سكرانة؟ لا أشعر ولو بقدر من النشوة." طلبتْ كأساً أخرى من الساقي. فيما كانت لمى تنظر إلى جهة أخرى، همست في أذن الساقي طالبة منه أن يخفف الكحول. كلما اقترب منا رجل ليتكلم معنا، كان نصير الذي كان قد أصبح مرافقاً تعتعة السُّكر، يطرده. لم يسبق لي أن تآلفت مع مثل هذا النوع من تصرفات الأخ الأكبر كما أن لمى التي كانت قد أصبحت في دنيا أخرى، لم تكن هي الأخرى مستعدة لقبول أي أخ أكبر. كانت تريد أن تتحدث وتلهو وتتبادل الغزل، لا مع نصير الذي بقي مصراً على إبقائنا ماشيتين إلى الحمام ومنه كي لا نجد أي فرصة للتحدث مع كائن من كان. مللنا الأمر وراوغنا نصيراً حين بات مستغرقاً في متابعة الرقص على الحلبة. اتصل نصير بلمى عبر هاتفها الخليوي ونحن في سيارة الأجرة التي أعادتنا إلى الفصول الأربعة. استطعت أن أسمع صرخاته البذيئة من السماعة: "... فيكم يا أوغاد!.. في **الواشنطن بوست**... في كل شيء!"

كنا قد جرحنا مشاعره، أحزنني ذلك. لم يكن التحول من رجل صَدّامي مهم إلى صدّامي عاطل عن العمل، إلى صدامي ذي علاقات واسعة يعمل لدى **الواشنطن بوست**، إلى رجل وحيد دون صلات بلا وطن، إلى رجل في بار هجرته صاحبتاه. إلا أن ذلك كان هو الواقع. لم نكن بحاجة إلى أي مرافقة. كنا فقط نريد أن نلهو قليلاً.

صباح اليوم التالي استيقظت لمى مع صداعها الأول الموروث عن الإكثار من الشرب مساء. وَبَّخْتُها قائلة: "هل رأيت؟ ذلك هو السبب الذي من أجله نصحتُك ألا تسكري."

في بغداد كنا، لمى وأنا، قد قررنا قضاء الجزء الأكبر من الرحلة في الأردن على البحر الميت. كنت بحاجة إلى منتجع، إلى شاطئ، مكان أستطيع أن أقرأ وأفكر فيه عن أي شيء باستثناء العراق. كانت لمى قد أفادت بأننا كنا نستطيع استعارة سيارة عمها لتقلنا من عمان إلى البحر الميت، سفر ساعة تقريباً. غير أنها قالت صباح اليوم الذي كنا نخطط فيه المغادرة إن البرنامج قد تغير لأن عمها أبدى قلقاً لعدم حيازتها إجازة سوق. تعين علينا، بدلاً من ذلك، أن نستعير سيارة جمال الذي كان مهندساً عراقياً تعرفه لمى من بغداد وهو في عمان منذ بضعة أشهر هرباً من العنف. لم أفهم كيف كان هذا حلاً أفضل طالما بقيت لمى دون إجازة سوق. سرعان ما تبين أن جمالاً نفسه لم يكن يملك سيارة يعيرنا إياها بل كان يعرف مكتباً لتأجير السيارات يدعى آفيس في عمان. وهناك، اختفى جمال في غرفة خلفية فيما دخلنا نحن مرآباً لاستعراض صفوف من سيارات السيدان ذوات الأبواب الأربعة. بعد العودة إلى المكتب لم أفهم كلمة واحدة مما كان يجري التفاوض بشأنه، غير أن الأمر، مهما يكن، استغرق ساعتين كاملتين، وتعين علي في النهاية أن أسلم إجازتي المحلية الكولومبية وبطاقة اعتمادي. وثمناً لهذه "الخدمة" سمحنا لجمال بأن يرافقنا إلى الغداء في مطعم الهمسة، وهو مطعم مكيف قريب من الفصول الأربعة فيه مسمكة عملاقة قريبة من البار. ثمة أيضاً بار للسلطة، فكنت سعيدة بمضغ الخس لدى مواصلة لمى وجمال كلامهما بالعربية. حاولت أن أقرأ الحوار من خلال الملامح واستنتجت أن جمالاً كان يكن شيئاً للمى، غير أن الأخيرة لم تكن مبالية على الإطلاق. وبعد ساعة أخرى تعين علينا أن نذهب إلى أحد السوبرماركتات لشراء المؤن، إلى السبعة ـ أحد عشر للتزود بالمشروبات الغازية، وإلى محطة البنزين لملء خزان السيارة بالوقود. ذهبنا إلى محطتين، رفضهما جمال بحجة تدني نوعية الوقود. ومع وصولنا إلى المحطة الثالثة ثار غضبي وعبرت عن امتعاضي من إضاعة النهار على هذه التحضيرات للسفر.

أخيراً امتلأ خزان سيارتنا بالوقود، وأقْحَمَتْ لمى نيساننا في زحمة حركة المرور الفوضوية فبتنا على الطريق، عاكفتين على التعرج والمراوغة والزمر عبر شوارع عمان. التفتت لمى إلي: "ما الخطأ؟".

"لا شيء! أنا بحاجة إلى عشر دقائق فقط."

أغمضت عيني.

بعد فرز أفكاري وترتيبها، قلت: "حسناً؛ هذه هي المسألة! في بغداد لا بأس من أن يستغرق كل شيء وقتاً مفرطاً في الطول. وقتي هناك يبدو لا نهائياً. أما هنا والآن فأنا في إجازتي، في أيامي الخمسة لا أكثر. أهدرنا صباحاً كاملاً ونحن نسعى لتدبر أمر النقل، ولم أكن أريد سوى الخروج من المدينة. في واشنطن عندي روحوبوت، ذلك الشاطئ الديلاويري الذي ألوذ به خلال الصيف هرباً من المدينة. لم أترعرع في أي مدينة، لذا فأنا بحاجة إلى فضاء على الإطلاق، ليس عندي أي ملاذ، أي تفاهة باستثناء ذلك المطبخ الحار البائس حيث أستطيع أن أخبز."

أومأت برأسها. لم أكن متأكدة قط من مدى تفهم لمى الفعلي لما قلته.

تابعت، مغمضة عيني ثانية: "ما أحوجني إلى النظام!"

غُصْتُ في مقعد الراكب فيما تولت لمى قيادة مغامرتنا العظيمة. ومع انكشاف الطريق، تجلى الأفق البني العريض لوادي الأردن على كل من الجانبين، فتحت عيني وشاهدت أننا كنا متدحرجتين انحداراً ملتزمتين المسار المتوسط. أن تنطلقي إلى إجازتك العزيزة متأخرة شيء؛ والموت قبل الوصول إلى الشاطئ شيء آخر تماماً. سألت بوداعة: "هل الحصول على إجازة سوق أمر صعب في العراق يا لمى؟"

ردت لمى: "نعم بالتأكيد!"

"الفحص صعب؟"

"فحص؟ ليس ثمة أي فحص. تدفعين رشوة. خمسة وعشرون ألفاً من الدنانير!" (نحو 17 دولاراً في 2004).

قلت بهدوء، ملتمسة العذر: "تعلمين يا لمى أني حريصة على عدم مطالبتك بأي شيء. ولكن أرجوك أن تعلمي أنني لست مهتمة بالوقت الذي سيستغرقه الوصول إلى البحر الميت. أرجوك أن تلتزمي بالحدود النظامية للسرعة... هل تعلمين أنك تسوقين على طريق ممتد مع كتف الهاوية؟"

"ما معنى كتف؟" سألت ببراءة.

عند نقطة التفتيش العسكرية الأولى، وهي علامة دالة على اقترابنا من الحدود الإسرائيلية، تحدث الجنود مع لمى بالعربية. تظاهرت بعدم الفهم وطلبت منهم أن يتكلموا بالإنجليزية. سمحوا لنا بالمرور.

سألتها: "لماذا تظاهرتِ؟"

"لا أريد أن أكون عراقية في هذه الرحلة. إنني بأمس الحاجة إلى إجازة من الجنسية العراقية." فكرتُ: لعلها محقة، ونحن نتجاوز جِمالاً ترعى في الحقول البنية. كلانا كان بحاجة إلى نوع من الهروب. واصلنا السير إلى أن أصبحنا قادرين على أن نرى ناحية اليمين: رقعة ماء متلألئة، استثنائية الزرقة تحت جبال الضفة الغربية على الضفة الأخرى. إنه البحر الميت. لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذه الحيوية المنعشة.

حددت الإشارة وأنا أحدق عبر النافذة في البحر. وقلت مشيرة إلى لوحة بنية ذات سهم: "انظري! إنه موقع التعميد." تساءلت: هل هذا ممكن؟ هل هذا هو مكان تعميد يسوع؟

اقترحتُ اتباع السهم لرؤية المكان فوافقت لمى وانعطفت بالسيارة يميناً لتتابع السير على طريق معبدة ضيقة. وصلنا إلى المكان "موقع تعميد يسوع." اغرورقت

عيناي بالدمع. على الفور فهمت لماذا يبكي المسلمون وينتحبون ضاربين صدورهم لدى حجهم إلى العتبات المقدسة. كنت بحاجة إلى هذا كي أفهم. أحسست بأنني شديدة القرب من إيماني في تلك اللحظة، إلى عريه المعروض أمامي، خلف بوابة وكشك بطاقات دخول. كنت قد أمضيت شهوراً في العراق وأنا أتعلم عن الإسلام، عن أوجه الشبه بينه وبين المسيحية. قرأت لي هدى من القرآن لتبين لي أن الإسلام الحقيقي لا يؤيد العنف في العراق. كانت شديدة الحرص على إفهامي، على جعلي أنقل هذا الفهم معي إلى الولايات المتحدة. وجدت الحديث الصريح عن الدين مع جهاز العاملين العراقيين في مكتبنا ميسراً. كانوا يعلمون بنشوئي في عائلة متدنية، بأن الإيمان كان وبقي جزءاً مهماً في حياتي. في غرفة أخبار أمريكية علمانية يميل الصحفيون إلى عدم الكلام عن معتقداتهم. يفترض فينا أن نكون موضوعيين أو، أقله، كتومين، حتى حين يتم التطرق إلى أمور ذات علاقة بالروح.

أتذكر من أيامي الأولى في **البوست** أن زميلاً في مكتب ميريلاند الجنوبية أعلن دون تفكير أن الجهلة، غير المتعلمين فقط يؤمنون بقصة الخلق. أدرت مقعدي لأواجهه وقلت: "حقاً؟ هل تظن أنني غبية لأنني مؤمنة بقصة الخلق؟" احمر خجلاً وقال: "لا، أنا آسف، لم أعلم أنك من رواد الكنيسة." من رواد الكنيسة! حسناً، نعم، أنا كذلك باعتقادي. ولكن ما الذي كان يعينه ذلك الكلام؟ هل كان يعني أنني متعصبة، إنجيلية، دائبة على هداية العالم؟ لم أكن مبشرة. ذلك هو ما كنته دون زيادة أو نقصان. بعد تلك الحادثة لم أكن ميالة قط إلى إطلاع زملائي وزميلاتي على حقيقة ترددي على الكنيسة كل يوم أحد، على حقيقة بعدي عن التعصب، على حقيقة مشاعري الطبيعية تماماً، على حقيقة أن الشيء الداخلي الذي كان يبقيني متوازنة تمثل بإيماني بالرب. لم أخلد إلى الراحة حتى انتقلت إلى القسم المالي واستقريت في زاوية ذات أربع نساء

أخريات، اثنتان منهن كانتا، أيضاً، تذهبان إلى الكنيسة كل يوم أحد. لم تكن تلك قضية ذات شأن.

كان مزار المعمودية مغلقاً بعد ظهر ذلك اليوم، فقررنا، لمى وأنا، أن نأتي ثانية في اليوم التالي. بدت الحرارة والرطوبة شديدتي الوطأة عند عودتنا في صباح اليوم التالي. الموقع الذي يقال إن يسوع كان قد عُمد فيه (ثمة بقعة أخرى تدعيها إسرائيل لنفسها على الضفة المقابلة للنهر) يسوع ليس الآن سوى مسيل نهر جاف مع عدد من الدرجات المفضية إليه. يبقى نهر الأردن على مسافة بضع مئات من الأقدام. جرجرنا نفسينا خلف مترجمنا الناطق بالإنجليزية إلى النهر، إلى تلك الكتلة المتعرجة من الماء الأخضر. طلبت لمى من دليلنا السياحي أن يزودنا بقارورة ماء فارغة، ثم ملأتها فيما كنا جالستين على الحافة مادتين أقدامنا إلى الماء الدافئ. قالت لمى وهي تغطس قارورة الماء: "شيء من هذا سيشبع رغبة أمي."

"فكرة رائعة! أمي أيضاً." قلت.

لاحقاً في تلك الليلة فيما كنا نلهو بالوقت في حوض السباحة بمنتجعنا، التفتت لمى إلي، مشرقة، وسألتني عما إذا كنت "سعيدة". أجبتها: "سعيدة؟ لا، أكثر من سعيدة. أشعر بأني آمنة." أومأتْ برأسها، ثم أسندنا رأسينا ثانيةً إلى جدار المسبح القرميدي ورحنا نراقب الشمس الغاربة خلف الجبال في إسرائيل.

درجت لمى على احتساء كأسين من النبيذ كل مساء مع العشاء، كمية كافية لجعلها تنام بعمق بعد العودة إلى غرفتنا. أقلقني إكثارها من الشرب غير أنني قررت أنها ربما كانت ببساطة، تستغل عدم وجود أمها معها. كانت في إجازة ربيع بفلوريدا. كل ليلة كنت أسقيها كوكتيلاً من الماء ومادة الآيبيوبروفين قبل دسها في الفراش. وفيما هي نائمة، كنت أكتب على شرفتنا وأتصل بكل من الماما وجني وأواصل التحدث معهما إلى أن ينتزعني النعاس من الكتابة والكلام. كنت بحاجة

إلى إسماعهما صوتي، وأنا سعيدة وآمنة، خروجاً على المألوف. كثيراً ما كانت تتعرض محادثاتنا، لدى اتصالي بالأهل، للبتر جراء أزيزي الحوامات في السماء أو أبواق السيارات البعيدة أو الضربات المدوية. بعد إنهاء المكالمة، مطمئنة إلى أن الماما وجني باتتا قادرتين على النوم دونما قلق كنوع من التغيير، كنت ألوذ بالأغطية تاركة باب الشرفة مفتوحاً على نسيم الليل والأنوار الغامرة لأريحا في الأفق الباهت البعيد.

قضينا ثلاثة أيام على البحر الميت ثم انطلقنا في الطريق الطويلة المتجهة شمالاً والمفضية إلى عمان، تلك الطريق الصاعدة، المتسلقة، المتعرجة، المرعبة بضيقها وصولاً إلى جبل نبو، ومن ثم إلى مادبا الشهيرة بلوحاتها الفسيفسائية البيزنطية.

قبل يوم واحد من مغادرتنا أعلمتني لمى برغبتها في إسماعي "كل قصتها من الألف إلى الياء." حين كانت في الثامنة عشرة من العمر، طالبة جامعية، دعاها ابن صدام السادي عُدي إلى حفلة. كانت أذكى من أن ترفض. اشتُهر عدي بالحصول على ما يريده، بما في ذلك أعداد لا تحصى من الفتيات الصغيرات، بل وحتى العرائس المتزوجات حديثاً. في الحفلة، قدم لها عدي كأساً من الشراب. لمى لا تتذكر شيئاً مما حدث بعد ذلك. استيقظت صباح اليوم التالي في سريره. كانت قد تعرضت للاغتصاب. نشجت متهدجة الصوت وهي تروي القصة، ثم ما لبثت أن هرعت إلى الحمام لتطلق العنان للمزيد من البكاء والنواح. صُعقتُ وأصابني الدوار مما كانت قد قالته لي. بعد دقائق عادت لمى من الحمام لتعتذر مني قبل أن تواصل قصتها. قلت لها وهي تتهاوى على السرير: "لا تعتذري! أرجوك؛ لا تعتذري!"

قريبٌ كان في الحفلة تعرف على لمى صباح اليوم التالي وأخبر أمها بما كان قد حصل. قامت أم لمى بطرد ابنتها من البيت ورفضت أن تكلمها مدة سنتين

فيما عاشت لمى مع جدتها. برأي الأم كانت لمى قد هلكت جراء تعرضها للاغتصاب. إحدى الخالات قاطعت لمى كلياً. ظنت لمى أن خطأ ربما قد حصل. حاولت الاتصال بعُدَي. مستشارو الأخير قالوا لها إن باستطاعتها استعادة البكارة عبر الخضوع لعملية جراحية. تمنعت لمى. كانت قد سمعت بأن نساء وافقن على الإجراء تعرضن للاغتصاب ثانية أو قُتلن. كانت حائرة.

سألتها: "كيف شعرتِ لدى سماعِك نبأ مقتل عدي بقنبلة أمريكية."

ردت: "لم أصدق الخبر."

"حتى بعد عرض الجثث على شاشات التلفزيون."

"ربما صدقت عندئذ."

"هل أحسست بأن العدالة تحققت؟ هل شعرت بالسعادة؟"

أدارت لمى رأسها نحو الجدار لدى سماع سؤالي. وردت بهدوء:

"لم يحدث ذلك أي تغيير في أي شيء."

في الطريق من البحر الميت، حاولت أن أفهمها بأنها لم تقترف أي خطأ. قلت لها: "يحق للمرأة أن ترفض زوجها، وإن كانت متزوجة. أنت تعرضت للاغتصاب يا لمى. أنت لم تكوني سيئة. أنت لست سيئة."

حدقت عبر النافذة فيما كنت أقود السيارة المتسلقة لطريق جبل نبو الضيقة المتعرجة.

قالت لمى بصوت مكتوم: "أنت الشخص الأول الذي يقول لي إنني لم أقترف أي خطأ."

"أنت لم تخطئي على الإطلاق يا لمى. يؤسفني كثيراً، وكثيراً جداً، أن تتعرضي لما تعرضت له. أنت لم تقترفي أي خطأ."

openkandil.com

وصلنا إلى قمة جبل نبو حيث يوجد دير صغير في المكان الذي يقال في التاريخ التوراتي إن الرب أرسل إليه موسى ليرى أرض إسرائيل الموعودة قبل موته. من قمة الجبل نظرنا، لمى وأنا، أيضاً إلى الأرض التي رآها موسى، إلى إسرائيل عبر الوادي العريض للبحر الميت.

سألت لمى جاحظة العينين: "هل تشعرين بالأمر؟ هل تحسين به؟"

قلت: "بلى، أحس بذلك كلما دخلت إلى كنيسة."

جلست وحدها على مقعد قريب من المذبح، وفيما نحن عائدتان إلى السيارة أفادت "كنت أصلي وأدعو الله إن يعينني على تحقيق أمنياتي!"

كنا قد خططنا للتوقف من أجل رؤية الآثار في مادبا غير أن لمى لاحظت فوراً أن أكثرية النساء كن محجبات. أما لمى نفسها فكانت لا تزال في قميصها الضيق المناسب للبحر الميت ومرقص الديسكو في عمان ولكنه غير ملائم لمادبا برأيها. سألتْ بعصبية: "من أين جاءت كل هذه الجحافل البن لادنية؟"

ارتدت قميصاً طويل الكمين سحبته من حقيبتها وخلعتُ أنا قبعة الصيد ورميتها إلى مقعد السيارة الخلفي. أمرتني لمى: "اخرجي من هنا بأسرع ما يمكن!" نفذت الأمر واندفعت بالنيسان نحو مدينة عمان الحديثة.

لم نتحدث عن "باقي القصة" ثانية. غير أنني أصبحت أراها على نحوٍ مختلف. كانت ناجية حقيقية من كارثة فعلية. كان لديها كل من يبرر لها أن تستسلم، أن تذعن، أن تذوب كلياً في جحيم ما كان قد حصل لها. والآن تعين عليها أن تنجو من حريتها الجديدة في العراق، هذه الحرية التي كانت لا تزال تصلها مجبولة بأعاصير من الدم والعنف.

بجانب المسبح في الفصول الأربعة، باحت بما راودها من رعب إزاء احتمال تعرضها للقتل من قبل أن تتمكن من مغادرة العراق مع ابنتها.

سألتني: "هل تعدينني بضمان إيصال سارة إلى أمريكا إذا ما تعرضت لمكروه؟"

"أعدك بالطبع، ولكن من الأفضل لنا ألا نتكلم بهذه اللغة. أنت ستتمكنين من الخروج."

رسمنا خطة للمستقبل. كانت ستطلب سمات دخول أمريكية لها ولأفراد أسرتها بعد عودتي إلى الولايات المتحدة. صحيح أن الحلم كان بعيد المنال، غير أن قصة لمى الإجمالية ربما ساهمت في الحصول على نوع من الملجأ في مكان ما. إذا جاؤوا إلى الولايات المتحدة فإن لمى كانت ستقيم معنا، أختي وأنا. كنت قد فاتحت جني بالموضوع وهي موافقة مئة بالمئة. أما سارة فكانت ستذهب إلى المدرسة مع ابن أختي أدريان. كانت لمى ستستطيع أن تتولى رعاية سارة وأدريان بعد الظهر لكسب المال. ومع الزمن كانت ستتمكن من استئجار شقتها الخاصة، أو قد أستطيع أنا أن أدخر ما يكفي لشراء بيت يتسع لنا جميعاً.

علقت لمى وعيناها غائبتان خلف النظارات الشمسية الداكنة: "لا أريد أن أموت قبل أن يحصل ذلك." طمأنتها قائلة: "لا، لن تموتي." غير أننا كنا، كلينا، نعرف أن هذا لم يكن إلا وعداً فارغاً.

كنت ملوّحة بالشمس ومرتاحة حين حطت طائرتنا بمطار بغداد بعد خمسة أيام. ما كنت لأتصور رحلة كهذه. تمكنت من معرفة لمى على حقيقتها. زقزقت المضيفة "بغداد ترحب بكم!" غمغمت لمى بتجهم: "تباً لمثل هذا الترحيب!"

بعد ساعة تسلقنا السيارة المصفحة التي أعادتنا إلى فندقنا الكئيب الباعث على الملل. جلست في المقعد الخلفي ورحت أراقب مشهد ما بعد الحرب المرعب - مشهد الدمار، المساحات المغطاة بالغبار، القمامة المكومة بجانب الأسلاك الشائكة. في المقعد الأمامي، بجانب السائق، حبست لمى دموعها وقالت:

"أكره هذا البلد. انظري إلى الدبابات. انظري إلى حواجز الحرس" الممزقة بألغام الطريق. "كم أتمنى أن أبقى مغمضة العينين إلى أن يأتي شخص ليوقظني في الصباح قائلاً: "تعالي، رحلتك الجوية جاهزة". لا أريد أن أكون هنا. لا أريد إلا أن أعيش حياة طبيعية."

بعد الاستقرار في الفندق، جاءت لمى إلى غرفتي لتشكرني على اصطحابي لها إلى الأردن. عاودت البكاء. بصوت مخنوق قالت: "كنت حرة" ودفنت رأسها في كتفي. احتضنتها قائلة: "كنت لمى، كنت حرة."

خلال الأيام القليلة التالية، صارت لمى أكثر هدوءاً. بدأت تأتي متأخرة وتغفو في مكتبها. عزت الأمر إلى شجارات ساعات الليل المتأخرة مع أمها، إلى مرض سارة، إلى القلق حول كل شيء. صارت تكثر من الكلام عن مدى كرهها للعراق. تشاجرت مع بسام الذي انتقدها على موقفها السلبي من وطنها مهما كان سيئاً.

عمر كان في الأردن - رحلتنا تقاطعت مع رحلته لليلة واحدة. كان يخطط للعودة بعد نحو أسبوع من عودتنا، لمى وأنا، إلى بغداد. وعدتُ بأن أعد طبقاً من المعكرونة مع الجبنة لفريقنا الرباعي: أنا، لمى، عمر وبسام. كان ذلك طَبَقهم المفضل، وكانوا يطلبونه دائماً كلما عرضت إعداد الطعام للمكتب. بسام، لمى، وأنا بقينا في طبقة المكتب منتظرين ظهور عمر في بهو الشيراتون. تمازحنا وتدافعنا، ضحكنا منتظرين عودة عائلتنا الصغيرة إلى الالتئام من جديد، منتظرين لم شمل الأسرة الصغيرة. بدت لمى سعيدة، مفعمة بالحياة من جديد. خطر لي وأنا أعاينها: قد يكون هذا ما كانت بحاجة إليه.

عبر عمر البهو بخطوات ثقيلة. متباهية بلغتي العربية صرخت: "**إنت ِوين؟**" تضاحك بسام ولمى وقالت الأخيرة: "**أنتَ وين!؟ أنت وين!؟** كنت تخاطبينه كما لو كان امرأة" بعد أن هدأت.

ملأنا صحوننا بالمعكرونة مع الجبنة وحملنا صوانينا إلى السقيفة المجاورة للمسبح. فتحنا قنينة نبيذ أردنية وشربنا نَخْبَ مغامرتنا في أمسية أيلولية مثالية ببغداد. كنا أربعة أصدقاء، مفعمين بالحياة، ممتلئين بالإمكانيات. تناوبنا، لمى وأنا، على سرد قصصنا الأردنية. حدثتهم عن إياد ذلك الأردني البالغ اثنين وعشرين عاماً من العمر الذي التقيته في ناد للرقص إحدى الليالي. دعاني إياد في الليلة التالية إلى تناول كأس. عند انتهاء "اللقاء" سألني إياد عما إذا كنت مستعدة لأعد له الطعام حين أعود ثانية إلى الأردن. بدا شديد البراءة، ذا جسم ممتلئ العضلات ومتناسق بفضل عمله في أحد أندية الجمال الجسماني. كان إياد طالباً جامعياً. بدا مندهشاً، لبقاً. أكثر من بعث الرسائل إلى هاتفي الخليوي الأردني، رسائل منتهية بـ "إم. دبليو. إتش. "أو قبلة. سألت مازحة: "أين سأعد لك الطعام؟ في مطبخ أمك؟" كان إياد ما يزال في البيت. نعم إياد كان في الثانية والعشرين وبدا كذلك. أما أنا فلم أكن في مثل سنه. سأل عمر: "ما الذي يجعلك شديدة الاهتمام بالسن؟" كررت القصة.

"أقول لك يا عمر، لقد كان في الثانية والعشرين!"

"وماذا في ذلك؟"

قررت لمى أن تتدخل. "لا تبدو أمريكية من حيث التطرف في التحرر. غير أنها على صواب."

كانت فوكس نيوز تقيم حفلاً صاخباً في الزاوية المقابلة من السقيفة. صدحت ألحان الموسيقا من مكبرات الصوت. قام أحد المخرجين بإعداد "سندويشات" الهامبرغر بالسيخ الذي استخدمه طباخنا لإعداد الكباب في احتفال عيد ميلاد لمى. لم نرغب في المشاركة، اعتذرنا عن تلبية الدعوة. لم نكن نريد غير الذوبان في بوتقة ليلتنا الخاصة.

بفففت

حَلَّقَتْ قذيفة المورتار الأولى فوق رؤوسنا. بالكاد لمحناها. بدت بعيدة جداً.

بفففففت

مرت قذيفة المورتار الثانية فوقنا. نظرنا إلى الأعلى.

قلت: "تلك كانت قريبة"، وقبل أن تكمل الكلمات خروجها من فمي دوي هائل وسهم ناري تفجرا فوقنا. تبادلنا النظرات لجزء من الثانية، في اعتراف جماعي على كل واحد من وجوهنا. كنا سنموت معاً.

"يا إلهي! اركضوا! اركضوا!" لا أتذكر صاحب الصوت.

المحتفلون في حفلة الفوكس اندفعوا بسرعة نحو الباب سابقيننا. لمى، بسام، عمر، وأنا حذونا حذوهم. توارينا في ردهة الفندق المعتمة. كان الناس منفعلين، يرتجفون. كان عمر قد دسنا، لمى وأنا، في وسط حزمة الأجساد ليوفر لنا حماية أفضل من الهجوم.

انتظرنا، متنفسين بصعوبة، متصببين عرقاً سوية فيما تابعت الصواريخ انفجارها في الخارج. عثر علينا حراسنا وهناك ووبخونا لأننا لم نهرب بعد سماع قذيفة المورتار الأولى. كانت تلك المنطقة القتالية 101. سمعتني أقول في رأسي: **غبية! غبية! نعم غبية!** خذلت حارسي. لليلة واحدة كنت قد تسللت إلى أحلام مترجمي العراقيين، مضيعة نفسي في آمالهم، نعم مضيعة نفسي. كان محتملاً أن أموت. كان ممكناً أن أموت هناك في تلك اللحظة، وكان ممكناً أن تتعرض جني للانهيار - لا لشيء إلا لأنني أردت أن أشعر بأني طبيعية لليلة واحدة، لا لشيء إلا لأني أردت استرجاع الأردن لليلة واحدة. اتصلت بجني ثم بأمي. غصصت بالكلمات حين تذكرت ما كان قد حدث، كيف اعتقدنا أننا كنا موشكين على الموت. حاولت ألا أبدو خائفة عند الاتصال بأهلي أو أصدقائي. كنت أعلم أنهم كانوا يعانون مما يكفي من القلق. والفزع الذي كان كثيراً

ما ينتابني في العراق ظل عادة دون مستوى السطح على أي حال، انطلاقاً من تكتيك نجاة ضروري هروباً من حالة الرعب الدائم. حتى في حالة الرعب كنت أجد صعوبة في التعبير عنها. كنت صريحة ومباشرة. فيما عدا تلك الليلة. تلك الليلة ذبت فزعاً، خفت أكثر مما فعلت خارج أبو غريب حين حاول الرجال الانقضاض علي. كررت على مسامع جني مرة بعد أخرى: "اعتقدنا أننا كنا سنموت معاً. كنت أتوسل إلى الله أن يجعل الأمر سريعاً. أريد أن أستيقظ فأجد نفسي في السماء."

بعد العودة إلى الصالون على طبقة البوست في الفندق راح عمر، بسام، ولمى يمجون السجائر حاملينها بأيدي مازالت مرتجفة.

قلت وهم يحدقون: "هاتوا واحدة!" رحت أنفخ كالهواة، وأسعل كلما شهقت. لم يسبق لي أن دخنت إلا مرة واحدة. وقد حصل ذلك في المرحلة الثانوية قبل عزف منفرد على البوق في إحدى مباريات كرة السلة بين المدارس الثانوية. أفسدت العزف، وثار غضب أبي عندما شم رائحة الدخان في السيارة. أحلت التهمة على طالبة كندية زائرة جديرة بالحصول على العفو لكونها أجنبية ومؤهلة بالتالي لنيل مثل هذه النعمة من أبي الأمريكي. أقسمت بألا أعود إلى التدخين ثانية. ولم أفعل إلى تلك الليلة.

بعد الحادث غادر عمر وبسام إلى منزليهما. فسدت سهرتنا، ليلتنا الجميلة. لمى وأنا أجهزنا على قنينة النبيذ ثم لعبنا كرة القدم في الممر، لعبة كرة زاخرة بالرضوض والكدمات أفضت إلى المصارعة والمباطحة. كسرت نظاراتي. قطعت نفسها حين بطحتها أرضاً وأنا أمازحها.

مثقلتين بالخدوش والرضوض، زحفنا إلى غرفتي، فيما كان الحراس يراقبوننا، مستمتعين وقلقين إزاء سلوكنا الشاذ.

قررت لمى أن تمضي الليل معي، ومع انزلاقنا إلى دنيا النوم أدركت أن التعويذة الأردنية لم تكتف بأن تحطمت بل وكانت قد أجهزت على لمى.

استيقظت صباح اليوم التالي على دوي انفجار هائل هز الفندق. يا إلهي! أرجو ألا يتكرر. كانت لمى قد واصلت النوم، لم يستطع الدوي إيقاظها. اقتربت منها ورحت أهزها: "لمى! قومي! انزلي إلى الأرض!"

حدقت في بدهشة ثم تصاعد دوي الانفجار الثاني. هذه المرة هوينا، كلينا، على الأرض. استطعت سماع جري الحراس باتجاه الغرفة. نهضت وفتحت الباب صفعاً.

"نحن بخير! نحن بخير!"

بعد ثانية رن جرس هاتف لمى الخليوي. كانت الهاتفة أمها. سيارة مفخخة كانت قد انفجرت خارج منزل أمها في الطرف الآخر من المدينة؛ لم نكن قد سمعنا دوي ذلك الانفجار. لحسن الحظ كانت الأم مع سارة في بيت لمى بحي بغدادي آخر. فزعت الأم. كان البيت قد دُمر. في حالة من الرعب دسَّتْ ملابسها في كيس بلاستيكي وطلبت من سائقنا الليلي رُفْعَتْ أن يوصلها إلى البيت. لم أرها ثانية.

حين رأيت إحدى صور لمى للمرة الأولى ظننت أنها بدت خطرة. لا خطرة مثل مجرمة مقنعة ذات عينين صغيرتين مخططتين بالقلم الرصاص عاكفة في مكان ما على التخطيط للمزيد من الأذى. قطعاً لا، بل بدت لمى بعينها السوداوين الكبيرتين وابتسامتها العريضة حيوية إلى درجة الخطر، امرأة تشق طريقها الصعبة في الحياة رقصاً، وذراعاها تطيران بنشاط لا يعرف معنى الحدود، امرأة دائبة، على نحو لا شعوري، على إخراج أناس معينين، أناس يحاولون العيش بأمان دون أن يلفتوا الأنظار في ظلال الحرب، أناس مثل أختي، من عزلتهم.

في الأسابيع التي سبقت الإجازة صارحتني أختي قائلة: "لا أعلم ما إذا كان ينبغي أن أطلب من لمى الذهاب إلى البحر الميت. إنها شديدة..." سكتت. ثم أكملت "إنها عديمة الحرص."

غاضبة فجأة من هذه المرأة التي لم يسبق لي قط أن التقيتها، حذرت أختي: "لا تصطحبيها إذن!"كنت أريد أن أحب العاملين العراقيين تماماً كما كانت تفعل أختي، أن أتعاطف معهم في حيواتهم القاسية ورغباتهم المشروعة، غير أن مثل ذلك الحب كانت له حدود. "خذي هدى بدلاً منها" قلت. قصدت هدى الجميلة. هدى المولعة بالشعر. هدى الآمنة. وحين أخبرتني أختي بعد أسبوع أن لمى كانت سترافقها كظمت غيظي بصعوبة كبيرة وكذبت: "يسعدني أنها ستكون معك."

علقت جاكي: "كم كنت أتمنى أن تكوني أنت أيضاً معي!"

أنا أيضاً كنت أتمنى ذلك. قبل سنوات قليلة رافقت أختي، ونحن في الثلاثين من العمر، في رحلتها الأولى إلى الخارج حين ذهبت إلى إنجلترا. كنت شديدة التوق لتمكينها من رؤية أكسفورد التي أمضيت فيها صيفاً دراسياً وأنا في الكلية. كان ذلك هو المكان الوحيد التي عشت فيه ولم تره أختي. كنت بحاجة إليها بوصفها شاهدة على حياتي، لجعل تلك الحياة واقعية أحياناً، ولجعلها أقل وحشة أحياناً أخرى. كذلك كنا أُخْتَيْ طريق جوهريتين، متناغمتين مئة بالمئة من حيث الحركات والأفكار. حين تخرجت جاكي من الكلية، كنت أنا مرافقة الرحلة معها في مسيرة الأيام الأربعة إلى الغرب من لوس آنجلوس، محشوة مع جميع ممتلكاتها بما لم يبق سوى ما يكفي من الهواء لتشغيل أشرطة أغاني جون دنفر في أثناء تدحرجنا داخل التشيفي نوفا. كانت ستعيش في كاليفورنيا، وكنت أنا سأعيش في بنسلفانيا، المسافة الأبعد التي فصلت بيننا. إلى تدخل العراق. في المطار

مشت معي إلى البوابة حيث توادعنا. التفتُّ لألقي نظرة أخيرة عليها قبل ركوب طائرتي، كانت واقفة حيث تركتها رافعة إصبعيها لرسم حرف V إشارة النصر. كانت تلك الحركة تقول: اقهري المسافات! اقتحمي الحياة وعيشيها بنجاح! لسنوات بعدها، كلما كانت إحدانا تغادر في أحد الأسفار، درجنا على رسم تلك الإشارة في الهواء.

تخيلت أنني ودعتها، اعني جاكي ولمى، ملوحة لهما بيدي أولاً لدى اندفاعهما في طريق المطار الخطرة، ملوحة لهما وهما تستقلان طائرة الركاب العراقية النفاثة القديمة التي كانت ستطير بهما إلى عمان، ملوحة لهما وهما تغادران في سيارة مستأجرة متوجهتين إلى منتجعيهما على البحر الميت. كانت أختي ستتصل بعد كل خطوة من خطوات الرحلة، موحية بأنها أكثر سعادة مما كانت تشي لأشهر. كنت أعرف أن لمى كانت، جزئياً، مسؤولة عن الفرح الكامن في صوت أختي، فبدأت أحب المرأة العراقية الخطرة التي تمثلت حريتها برفضها للعزف الآمن. شعرت بالامتنان لأنها هي وأختي استطاعتا اقتسام رحلة عمريهما.

أما الآن فوجدتني واقفة عند شفة الصورة، مفعمة حنيناً وقلقاً وأنا أتابعهما تبتعدان، وقد ارتفع اثنان من أصابعي أنا لرسم حرف في V، رمزاً للنصر، وللسلم.